المحاضرة الثالثة: أنواع الهويات (الهوية الإثنية/الهوية القومية)

الهُويَّات المتعددة وعَلاقتها بالهُويَّة الوطنية من القضايا المثيرة للجدل والنقاش؛ لِما لهذه العَلاقة من أثر في الاستقرار الوطني بين مكوِّنات المجتمع، وهي تؤثِّر في بناء دولة القانون واحترام حقوق الإنسان والمواطَنة الشاملة. وفي ظلِّ الآثار السريعة والمعقَّدة للسياسة العالمية الراهنة، باتت الهُويَّات الإثنية والعرِقية والدينية والطائفية أدواتٍ ترتكز إليها السياسةُ الدَّولية. وفي المقابل هناك تداخلاتٌ وإشكالات كثيرة في مفاهيم الهُويَّة، وفي مظاهرها الوطنية على اختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية، ممَّا يؤكِّد الحاجةَ إلى وسائل نظرية وعملية للانتقال من الهُويَّات الفرعية إلى الهُويَّة الوطنية الجامعة.

أولا- الهوية الإثنية:

عند استخدام مصطلح الهوية الإثنية فإنه يتم التركيز على علاقة الشخص بأفراد المجتمع الآخرين، وهي تشير إلى مجموعة من المؤسسات التي تربط الناس سوية من خلال ثقافة مشتركة، ويمكن أن تشمل هذه المؤسسات: اللغة، الدين، التقاليد، التاريخ...إلخ.

وبما أن هذه الأشياء مرسخة في مؤسسات فإنها تزود الأشخاص بهوية خاصة يتناقلونها من جيل إلى جيل، ويطلق على هذه العملية اسم النسب، وهي أن يحمل الشخص صفات معينة عند ولادته. لكن الإثنية ليست صفات موروثة فقط، فهي تحمل معها تضامنا اجتماعيا في مواجهة مجموعات مختلفة إثنيا.

وفي الحقيقة غالبية دول العالم ليست متجانسة إثنيا، لذلك فنادرا ما يكون المجتمع والأثنية شيئا واحدا ، لكن ما تجدر الإشارة إليه أن الإثنية في جوهرها هوية اجتماعية والتضامن الذي توفره ليس سياسيا بطبيعته، رغم أنها قد تتحول إلى ذلك.

ويندرج ضمن الهوية الإثنية:

الهُويَّة العِرقية: هوية تقوم محدِّداتُها على الخصائص الجسدية للمجموعات السكَّانية المتميِّزة ضمن جنس بشري أكبر، وأبرزُ هذه الخصائص هي لونُ البشَرة والشعر، وملامح الوجه ولا سيَّما نمط العيون ومَظهَر الأنف، وسَمة بنية الجسد.

وكثيرًا ما يتم التمييز بين الهويتين الإثنية والعِرقية من خلال أن العِرقُ محدِّد بيولوجي والإثنية محدِّد ثقافي؛ فمن الممكن إخفاءُ الإثنية أو إظهارها، بخلاف الهوية العِرقية التي لا يمكن إخفاؤها أبدًا، فهي ظاهرةٌ في مُحيَّا الفرد وملامحه.

أمَّا الهُويَّة الدينية فهي: الشعورُ بالانتماء إلى المجموعة الإيمانية الواحدة والارتباط بأفرادها. ويتجلَّى هذا الشعورُ بالوَحدة الاندماجية الروحانية، وفي الواقع السُّلوكي للممارسات. وممَّا يمنح الهويةَ الدينية تميُّزًا أكبر: شمولُ آثارها، وتجاوزها لجميع المحدِّدات الفرعية الأُخرى، مثل: العِرق والقومية والجنس واللون، وغيرها من الدوائر المحدِّدة لانتماء الفرد.

وهناك الهُويَّة الطائفية التي تحدَّد بالانتماء الديني الضيِّق إلى مجموعة دينية محددة ذات كِيان خاصٍّ يميِّزها في الانتماء العريض للدين ذاته. ويؤثِّر الانتماءُ الطائفي في معتقدات الفرد وتصوُّراته وسلوكه، التي تتجسَّد في العادات والتقاليد والتوجُّهات الثقافية للمجموعة المحدَّدة.

وهذه الهُويَّات كلُّها تمثِّل في مجملها حاجةً إنسانية تنبُع من ذات الفرد واحتياجه إلى مكوِّن اجتماعي يلوذُ به، يكون إطارًا حاميًا له من تكتُّلات المجموعات البشرية الأُخرى، وسعيها في الحفاظ على مصالحها. ولهذا تلجأ المجموعاتُ البشرية إلى البحث عن المشتركات الإنسانية الخاصَّة، وعن المصالح المشتركة التي تنظم عَقدَها الاجتماعي، فتكوَّنت بذلك الهويات على مستويات متعدِّدة؛ تضيقُ أحيانًا إلى مستوى أفراد قليلين، وتتَّسعُ فتشمَلُ دولًا أو أممًا وشعوبًا.

وربما تمثِّل الهوية القومية أو الهوية الدينية أو الهوية العِرقية أو الهوية الطائفية، تعبيرًا عن الإطار الضيِّق للهويات، غير أنها في حالات أُخرى تجسِّد إطارًا واسعًا، ولا سيَّما في حالة الهوية الدينية، أو الهوية الوطنية التي قد تكون جامعةً لأكثرَ من قومية أو دين أو عِرق أو طائفة.

ثانيا- الهوية الوطنية:

الهُويَّة الوطنية هي الخصائصُ والسِّمات التي يتميَّز بها المواطنون داخل كلِّ دولة، وتُبرز تلك الخصائصُ روحَ الانتماء لديهم، وتُوظَّف في رفع معنويَّاتهم لغرض تقدُّم مجتمعاتهم وازدهارها. وتشتمل الهويةُ الوطنية على عناصرَ أساسيةٍ بعضُها مادِّي والآخر معنوي، منها: الموقع الجغرافي، والتاريخ المشترك، والمصالح المشتركة، والحقوق المشتركة. ويتمتَّع أبناءُ الهوية الوطنية الواحدة بالحقوق ذاتها؛ كحقِّ التعليم، وحقِّ الملكية، وحقِّ العمل، ويشتركون في الواجبات الفردية والجماعية التي ينبغي عليهم القيامُ بها، بالصفة الفردية أو الجماعية، في مؤسَّسات تعمل وَفقَ أساليبَ محدَّدة، كمؤسَّسات التربية والتعليم، والصحَّة والبيئة، والاقتصاد والبنى التحتية، والدفاع والأمن، وغيرها من مؤسَّسات وطنية تحمل روحَ العمل الجماعي لخدمة الوطن والمواطن. فهذه كلُّها بعملها والتزامها به على الوجه الأمثل تعبِّر عن الهوية الوطنية. وتتجلَّى أهميةُ الوعي بالهوية الوطنية والالتزام بها في آثارها العظيمة الظاهرة على الفرد والمجتمع والوطن.

وعلى ذلك تعرف الهوية الوطنية باعتبارها مجموعة من المؤسسات التي تجمع الناس سوية من خلال طموحات سياسية مشتركة، لعل أهمها الاستقلال والسيادة.

يمكن أن تبنى الهوية الوطنية بناء على هوية إثنية مشتركة وهو ما توضحه حالات الثورة ضد الاستعمار لتكوين دولة مستقلة، أو بعض حالات انفصال الدول عن بعضها البعض، لكن قد تبنى الهوية الوطنية حتى مع غياب الهوية الإثنية المشتركة وخير مثال على ذلك هو الأمة الأمريكية.

أخيرا يمكن القولُ: أن الهُويَّة الوطنية هي الوعاء الذي يحوي ويستوعب جميع الهويات. وهي تتمثل بمؤسسة الدولة التي تعتمد على دستور يحقق للجميع غاياتهم وفيه اقرار بتمتع افراد المجتمع الواحد بجميع الحقوق مثلما عليهم الإلتزام بالواجبات الملقاة على عاتقهم أو المترتبة عليهم من جراء انتمائهم للرقعة الجغرافية المحددة. والمعلومة للجميع والمعرفة بإسم الوطن، والتي ينتسب الفرد اليها وتكون عنوان هويته الوطنية.

ان قوة الهوية الوطنية واتساعها يؤدي الى ضعف وتفتت الهويات الفرعية وقلة فاعليتها في المجتمع، وبالعكس فإن ضعف الهوية الوطنية لأي سبب كان، يؤدي الى تنامي وقوة الهويات الفرعية الذي يؤدي بدوره الى التنافس والصراع وحتى الإقتتال.

ثالثا- الهويات المتعددة وأشكال الاستجابة:

يرتبط تعدد الهويات ارتباطا وثيقا بمسائل التنوع الثقافي، ويمكن النظر إلى خمس استجابات ممكنة لمسائل التنوع الثقافي:

1. الانعزالية.
2. الاستيعابية.
3. التعددية الثقافية الضعيفة.
4. التعددية الثقافية القوية.
5. التمييز العنصري.

ينتج عن التنوع الثقافي عواقب مختلفة على مستوى علاقات القوة داخل المجتمع، وهو ما يفرز إما نماذج صراعية أو نماذج توازنية تبعا لطبيعة العلاقة الموجودة بين متغيرات المجتمعات التعددية.